

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 3 (2009) :325 - 340
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

المناهج النقدية المعاصرة ومشكلاتها
-المنهج السياقي نموذجا-

أ/ رضا عامر - قسم الأدب العربي جامعة مُحَّد خيضر – بسكرة

يقول فيكتور هيجو:«كان الناقدون في زمن، "لاهارب" نحويين وفي أيام "سنت بيف"و"تين" مؤرخين فمتى يصبحون فنّانين حقا وصدقا».

تمهيد:

تعدّ المناهج النقديّة المعاصرة وسائل وأدوات مساعدة على سبر أغوار الظاهرة الأدبيّة وليس غاية في حدِّ ذاتها، ففي البدء كان الخطاب الأدبي ثمّ كانت الممارسة النقدية،التي لازمته وتطورت إلى مناهج النقد المتنوعة سياقية كانت أو نصانية من خلال البحث عن مقصدية الكاتب، واستقصاء تجليات الخطاب الأدبي، واستقراء الظواهر الفنية، الفضاءات النصيّة داخل العمل الأدبي، لهذا كان فرض أي منهج على خطاب، أو عمل أدبي ما كفيل بتكريس عملية نقدية منحرفة، ولغة واصفة عقيمة، ومن هنا كان عمل الناقد تحرِّي الموضوعية والروح العلمية في التعامل مع الظاهرة الأدبية لأنّه تعامل مع الذات المنتجة وسط بيئة سياسية، واجتماعية، وتاريخية.

وعليه نجد الناقد المعاصر يتحرى ويبحث وسط المناهج النقدية المعاصرة خاصة "الأسلوبية أو البنيوية، أو التفكيكية، أو السيميائية، أو التداولية" وغيرها من المناهج التي تولي اهتماما بالنص على حساب الناص "الكاتب"وذلك وفق آليات وأدوات إجرائية تتحقق مع النص الأدبي المراد استنطاقه أو تحديد القراءة النقدية المناسبة له وهذا لن يتحقق إلاّ من خلال الممارسات والتجارب النقدية المتواصلة التي يكتسبها الناقد من خلال تمرّسه

على مختلف النصوص الأدبية الشعرية أو السردية، ومن هنا كان "المنهج السيميائي" من بين مجموع المناهج النقدية المعاصرة التي تعرضت للنقد الشديد رغم تخصص الكثير من الباحثين وتمرسهم في تحديد آلياته الإجرائية للممارسة النقدية الجادة.

1– المحور الأول: الظروف التاريخية في نشأة المناهج النقدية المعاصرة: عرفت النظريات اللسانية الغربية في القرن العشرين« ردات فعل على المناهج السابقة تجلت في التحريض على دراسة الأدب من الداخل والتركيز، أولاً، وقبل كل شيء على الآثار الأدبية ذاتها... وهكذا بدأ الاتجاه (الألسني) في تحليل النصوص الأدبية » [1] حيث حدثت تطورات ايجابية خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين إذ انحسرت المناهج السياقية (كالمنهج التاريخي،والنفسي،والاجتماعي) لتأخذ مكانها المناهج النصانية التي تنبني على رؤية فكرية للوجود والكون والتاريخ والإنسان فتنطلق من النص، وتعود إليه، فإن أصحاب الاتجاهات النقدية الجديدة يرفضون اليوم نسبة النص إلى مبدعه. فلا ينسبونه إلا إلى نفسه، لأن تحليل النص الأدبي يقتصر على تحليل (النّص) وحده، دون التعرض لعلاقته بمبدعه، أو للظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أحاطت بمولده، ويحصر همّه في تحليل (وحدات) النّص، و(بنياته) الدّالة، وعلاقاتها بعضها ببعض، فكان المنهج السيميائي واحدا من أهم المناهج النصانية التي لقيت اهتماما بالغا من الأدباء والنقاد،إذ تنطلق من « محاولة تجاوز المآخذ والنقائص المسجلة على النقد البنيوي، والمتمثلة في الرؤية المغلقة للبنية الأدبية. » [2]

وعليه أصبحت القراءة بديلاً من النقد، فلكي تتمّ القراءة لابدّ من حضور طرفيها (النص– القارئ) حضوراً حوارياً تفاعلياً، ولايتمّ هذا الحضور إلاّ إذا كان الطرف الأول (النّص) ثرياً، وكان الطرف الثاني(القارئ) عاشقاً، وهو عاشق من طراز رفيع، لطيف، مبرأ من السادية والمازوخية، يحترم في الآخر قدرته على الحوار والتواصل والتمتّع، كما يحترم في الوقت ذاته استقلاله الشخصي عن بقيّة العشّاق، فهو ليس صورة عن أيّ عاشق آخر في الكون، ولذلك فإن ثمة وجوه اختلاف، وثمة وجوه اتفاق بين النقد والقراءة.

وتعدّ المناهج النصانية التي أصبح النقاد يستخدمونها مناهج أقلّ سلطة وأخفّ وقعاً على النص الأدبي، وهي تسهم إلى حدّ بعيد في تعميق فهم القارئ للنص من خلال فتح

حوار تفاعلي بين النص والقارئ، فيستطيع الأخير أن يتعرّف النص، ويكتشف كنوزه وخباياه وأسراره وطبيعة علاقاته، ولعلّ أهمّ شيء ينبغي أن يكون عليه الباحث هو التسلح بمصطلحات ومنهج قبل مقاربة النص تقدّم المقروئية اليوم للقارئ مناهج مختلفة عن السيميولوجية والتفكيكية ونظرية التلقي، وعليه « تحاول الاتجاهات النقدية الجديدة النظر في المؤثرات النصّية السابقة على النص» (3)

وإذا كانت اتجاهات النقد العربي تتفاوت في محاكاة نموذج النقد الغربي بكل صورها النظرية والتطبيقية « اقترابا وابتعادا انقيادا استيحاء، متابعة ولهاثا، فإنّ هذه الاتجاهات تظل متأثرة تأثرا يأخذ شكل الإنصات السلبي والتبني الجاهز» (4) ومن هنا تبقى آراء نقادنا مجرد صدى وترداد لتلك النغمات النقدية التي يقوم الأخر بعزفها على سيمفونية الآلة النقدية، في حين يرددها الناقد العربي، ويحاول أن يؤسس لها مناخا ترتكز عليه، وأنصارا ينتصرون لفكرة الغير على حساب النقد والنص العربي الأصيل« على أنّ الأصل الأصيل لمناهج البحث الأدبي هو وحدة الحضارة الإنسانية فكل عناصرها الطبيعية والاجتماعية والسياسية متشابكة متافعلة لا يستقل أحدهما بالحياة منفردا، وإنما يتصل بسائر مؤثرا ومتأثرا فإذا أردنا دراسة الادب كان علينا – منهجيا– أن نلاحظ آثار تلك العناصر في صياغته وتطوره» (5)

1-1.<u>ظاهرة صراع المناهج النقدية</u>: في ضوء الواقع النقدي، وصراع المناهج النقدية نرى أن هناك مشكلة كبرى تتمثل في عدم تحديد المنهاج النقدي، والمصطلح ومن ثم في بناء نظرية نقدية عربية أصيلة يتفق عليها جميع النقاد المغاربة والمشارقة، فحالة الضعف التي نعيشها على عدد من الصُّعُد تؤكد تبعية التجدد والابتكار في الثقافة عامة والأدب والنقد خاصة. والمثقف الناقد القارئ المدقق المتوازن الموهوب في حساسيته وفطرته وعلمه هو من يصنع الفكر، أمّا ما نراه على ساحة الأدب والنقد فهناك أشكال غير قليلة انتهت إلى الاستلاب الإرادي والثقافي، وإلى بلبلة فكرية وسياسية وشللية ودينية وقومية، فكلما اخترع الغرب مصطلحاً ما، أو منهجاً طفقنا ننتصر له ونحن نمارس تبعيتنا بلذة مغرية، وشرعنا نعيب على نقادنا القدامى تقصيرهم عما وصلت إليه حركة النقد الحديثة بل كلما ظهرت في الغرب مفاهيم جديدة أقلع نقادنا المحدثون عن السابقة وألغوا ما قاموا به، صحيح « إن المقاييس الغربية .

حتى إن فُهمت أحسن فهم وأصحه. لن ينتج تطبيقها على الأدب العربي خيراً. ذلك لأنَّ هذه المقاييس قد استخلصت من دراسة أدب تختلف طبيعته عن طبيعة الأدب العربي اختلافاً عظيماً»[6] وهكذا شرع هؤلاء النقاد الباحثون خاصة المشتغلون في الحقل الأكاديمي (وحدات البحث) المختلفة استخدام كل حقول المدارس النقدية الغربية والتغني بمصلحاتها،وحتى بأصحابها وكأن نقادنا العرب غابوا عن ساحة النقد تماما « الأمر الذي يظهر "الحداثية" و" التقدمية " ويخفي حقيقته التي هي "التبعية"، وتحقير الذات »[7]

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل هناك العديد من المصطلحات النقدية التى أساسها النقد العربي القديم، ومن ثمة نسبت إلى النقد الغربي،وهذا ما تجاهله النقاد المحدثون الذين اشتغلوا في حقل الشعرية والبنيوية والتفكيكية ونظرية التلقي والتداولية،وهذا كلّه كون لديهم مجموعة من التراكمات والتشوهات النقدية على المستوى النظري والإجرائي في المنهج والمصطلح وحتى في أساليب معالجتهم للنصوص الأدبية وخلق ألوانا من الصراع اللامتناهي بينهم في قراءة النصوص حيث: « لحق بالنص الأدبي ضرر محقق من جرّاء المغالاة في إخضاعه لمناهج "العلوم الإنسانية" وذلك حين قيدت النظرة إليه بحدود المناهج التي يفسر بها» [8] تلك النصوص على اختلاف أجناسها،وأشكالها تبقى مفتوحة القراءة على أن يختار لها الناقد الحاذق المنهج النقدي الملائم لها،و أن يحسن الاختيار من بين الكم الهائل من الإبداع الأدبي وهذا الاختيار ضرورة وحتمية فرضتها طبيعة النص الأدبي.

1–2. ظاهرة التكامل بين المناهج النقدية: وتظل القراءة النقدية الواعية مفتاحا إجرائيا للولوج إلى المناهج النقدية والأدبية مجتمعة أو منفردة، وعلى تقنياتها، فتبيح الشمولية والموازنة والمقارنة، وبهذا آثرناها ليس باعتبارها محطة نقدية وإنما باعتبارها طريقة فنية تؤدي إلى تأسيس منهج نقدي عربي تكاملي أصيل غير معزول عن المناهج النقدية والأدبية، وعن العلوم المساعدة الأخرى، إذ تعمل على« افتتاح فضاء للخطاب النقديّ يتسع للحوار، وبالحوار، بين تيارات الخطاب العربيّ واتجاهاته وميوله»[9]، وهذا يتضح في انفتاح المناهج النقدية يكمل بعضها الآخر خاصة في الفكر المنطقي والرؤية التحليلية

وهكذا تحمل جيل الستينيات الممتد إلى حاضرنا الراهن، مع شباب نقاد، تأكدت

لديهم رغبة الدرس النقدي أكاديمياً، في الحقول المعرفية، جامعياً، وذلك وفق المناهج الحديثة، ليتوصلوا مع المعطى النقدي الجديد درساً وبحثاً وتطبيقاً،حيث استطاع المثابرون منهم التوفر على (أسلوبية) معاصرة تجلت فيها (النقدية) في محاولة للارتقاء بالأثر النقدي إلى مرتبة (نص إبداعي) دون مصادرة جهد الرواد، والاتجاهات التالية، أو الاستخفاف بهما، وإن تشابكت، أحياناً، المناهج، أو احتدم النقاش تحيزاً لها ودفاعاً عنها، حتى تتأكد "المنهجيات" وتتأصل في التطبيق، وفق آلية واضحة، وإجرائيات ملموسة، وفي هذا الصدد نجد إحسان عباس يرى أنّ « النقد لا يقاس دائماً بمقياس الصحة أو الملاءمة للتطبيق، وإنما يقاس بمدى التكامل في منهج صاحبه»(10)

تتأتى أهمية التكامل بين المناهج النقدية من كونها الوسيلة القادرة على تنظيم البحث النقدي من خلال إجراءات محددة،ووفق طرائق خاصة، ولا يسع الناقد الاستغناء عن هذه المناهج،حاضرة أو غائبة فهي بحاجة ماسة إلى « منهج أو أكثر ليستهدي به، إذا ما أراد أن يكون عمله جاداً تؤطره نظرية واضحة المعالم لتحدد له المسالك التي ينبغي له أن يسلكها وتجنبّه المزالق والعثرات»(11) النقدية وخاصة إذا كان العمل المقدم أكاديميا فإنّه يستدعي أكثر من منهج نقدي ليؤسس ظاهرة التكامل المنهجي، والمعرفي بين آلية التنظير والتطبيق على النص الأدبي،ومن هنا نجد حين يخوضون غمار النقد فهم يجمعون بطريقة أو بأخرى بين النقد المعياري والسياقي والنصاني بدق متناهية بشكل غريب،وبهذا تتم معم عملية الازدواجية المعرفية للباحث والمبدع على حد سواء لتنبني أسس التكامل بين حلقات النقد القديم والحديث والمعاصر.

2- المحور الثاني: المنهج السيميائي وإشكاليات تطبيقه على الظاهرة الأدبية: ومن المعلوم أن اللِّسانيات الحديثة كانت منطلق المناهج النقدية النصانية وخاصة "السيمياء" التي تعددت اتجاهاتها وفروعها وأنصارها ومصطلحا تها الغريبة عن أدبنا، ونقادنا على وجه الخصوص، ممّا أفرز الكثير من الإشكاليات النقدية التطبيقية منها على وجه الخصوص أزمة توحيد المصطلح بين النقاد في عملية التحليل النقدي، وصعوبة تحيد الأدوات الإجرائية المطبقة على النصوص النقدية ومن ثم عدم الوقوف على اتجاه نقدي معين يقف عليه النقاد

لتوحيد فعل النقد المؤسس وفق تقنيات متفقة بين الناقد والناص، حيث في أغلب الأحيان نعدد القراءات النقدية السيميائية إلاّ أنها في نهاية الأمر تبقى مختلفة الأطر والأدوات المستعملة في عملية النقد الأدبي، والأكثر من ذلك لو تسأل صاحب الإبداع عينه حول النقد المسلط على منتجه لأجابك بأنّه لم يقصد كذا، ولم يقل كذا ومن ثم تبقى مسألة "قتل المؤلف / والإبقاء على النص" مسألة تبقى بحاجة إلى إعادة نظر،وطرح نقدي عربي جديد ينظر للنص والناص عل حد السواء.

لا يختلف اثنان على أن المناهج النقدية الحديثة ومن بينها المنهج السيميائي هي ثمرة ثقافة غربية (أوربية وأمريكية) وحصيلة حضارتها المادية،وأنها انتقلت إلى العالم العربي مثلها مثل باقي معالم الحضارة عن طريف موجة التأثير الغربية التي هزت العالم العربي، فلم يعد بوسعه إلا التبني أو التقليد أو إعادة التصنيع – إن صح القول – بحسب ما يناسب الحضارة العربية، وهذا ما حدث عند ظهور علم السيمياء الذي عرفه الوطن العربي "منذ منتصف السبعينيات[12].

2–1. الإرهاصات التاريخية لعلم العلامات" السيمياء": تعدّ بداية الستينات من القرن العشرين البداية الفعلية لعلم العلامات في كل أنحاء العالم، من خلال مصطلحين متداولين في الثقافة الغربية الفرنسية والأمريكية، وهما مصطلحا: (سيميولوجيا/ سيميوطيقا) إلى أن اتحدا باسم السيميوطيقا بقرار اتخذته الجمعية العالمية للسيميوطيقا التي انعقدت في باريس سنة 1969م، ومن الأعضاء النشطين في هذه الجمعية " يوري لوتمان' أمبرتو إيكو"' وأخيرا نجد الناقدة البلغارية " جوليا كريستيفا".

كما « انعقد بميلانو في إيطاليا سنة 1973م، أول مؤتمر عالمي للسيميوطيقا، وأثار هذا المؤتمر أهم مفاهيم السيميولوجيا النظرية، والإجرائية» [13]، حتى أن الجمعية الدولية التي تأسست في فرنسا سنة 1974م، اختارت لها اسم سيميوطيقا، ولم تختر اسم سيميولوجيا، وإن كان المصطلحان متشابهين جدا سواء في سيميولوجيا دي سوسير، أو سيميوطيقا بيرس، فإنه لابد من الإشارة إلى ذلك الدور الذي لعبته في حقل تطور هذا العلم.

ومن ثم فقد عرف علماء الغرب (السيميولوجيا) تعريفات متنوعة، لكنها تصب في

منبع واحد فهي "العلم الذي يدرس العلامات"، وهذا ما أشار إليه كل من " تزفيتان تودوروف"، و"جوليان قريماس" و"كريستيان ميتز" وآخرون.

حيث إن السيميولوجيا تتكون « من الأصل اليوناني:"Séméîon" الذي يعني علامة، و"Logos "الذي يعني خطاب» [14] كما تعني أيضا ذلك: « العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات لغوية كانت، أو أيقونية، أو حركية »[15].

ويبدو أن تعريف "جورج مونان"، أوفى هذه التعريفات وأجودها، إذ يحدد السيميولوجيا بأنها « العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات (أو الرموز) التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس» [16]، أما العلماء العرب، ومن بينهم "صلاح فضل" فقد عرفها بأنها « العلم الذي يدرس الأنظمة الرمزية في كل الإشارات الدالة، وكيفية هذه الدلالة»[17] في حين ذهب " مُحَمّد السرغيني" بقوله: « السيميولوجيا هي ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات أيا كان مصدرها، لغويًا، أو سننيًا، أو مؤشريًا» [18]، ويبدو من خلال ما ذكر من تعاريف سابقة، أن أصحابها يتفقون على أن السيميولوجيا أو السيميوطيقا علم يهتم بالعلامة والأنظمة اللغوية.

كما يشمل هذا العلم ميادين واسعة متباينة « كعلامات الحيوانات، علامات الشم، الاتصال بواسطة اللمس، الاتصال البصري، أنماط الأصوات والتنغيم "intonation"، والتشخيص الطبي، حركات وأوضاع الجسد، الموسيقى، اللّغات الصورية، اللغات المكتوبة، الأبجديات المجهولة، قواعد الأدب، أنماط الأزياء...» [19].

وفي «نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين ارتبط ظهور علم العلامة بوجود عالمين يرجع الفضل إليهما في ظهوره، بالرغم من عدم معرفة كل منهما بالآخر» [20] حيث ينتهيان إلى علم واحد بمصطلحين شائعين هما "Sémiologie" من "Sémion" اليونانية حسب اللغوي فرديناند دي سوسير، "F. De Saussure" (1856–ت1913م)، ولقد حصر سوسير هذا العلم في دراسة العلامات في دلالاتها الاجتماعية، أو"Sémiotics" حسب الفيلسوف "شارل ساندرس بيرس" "Ch. S. Pearce" (1838–ت 1919م) الذي جعل العلامة تدرس منطقيا.

وفي نهاية الأمر حدد غريماس الفارق بين المصطلحين في اللغة الفرنسية، بأنْ جعل "السيميوطيقا" تحيل إلى الفروع، أي إلى الجانب العملي والأبحاث المنجَزة حول العلامات اللفظية وغير اللفظية في حين استعمل "السيميولوجيا" للدلالة على الأصول، أي على الإطار النظري العام لعلم العلامات، وفرق آخرون بين المصطلحين على أساس أن "السيميولوجيا" تدرس العلامات غير اللسانية كقانون السير، في حين تدرس "السيميوطيقا" الأنظمة اللسانية كالنص الأدبي.

2-2. المنهج السيميائي وآلية تطبيقه: شهد الخطاب النقدي المعاصر رجات،وتحولات كبرى وعميقة في العقود الأخيرة من القرن العشرين، فتحولت القراءة من قراءة أفقية معيارية إلى قراءة عمودية متسائلة تحاول سبر أغوار النص، ولا سبيل إلى هذا الفعل النقدي إلا بالتسلح بالمنهج السيميائي الذي « يرفض التصورات النقدية التقليدية التي تهتم بسيرة المؤلف» (21) ويعتبر النص بنية قابلة للتأويل فينظر إليه من زاوية أنه « قطعة كتابية من إنتاج شخص أو أشخاص عند نقطة معينة من التاريخ الإنساني وفي صورة معينة من الخطاب،ويستمد معانيه من الإيماءات التأويلية لأفراد القراء الذين يستملون الشفرات النحوية،والدلالية،والثقافية المتاحة لهم»(22)

فمن هذه النقطة بالذات اكتسب المنهج السيميائي في خصوصية وأصبحت القراءة النقدية على ضوئه قراءة إنتاجية تحاول تقريب القراءة من الكتابة،فيصبح القارئ كاتبا، ومنتجا ثانيا للنص، لأن القراءة السيميولوجية تعتبر أن النص يحمل أسرار كثيرة تستفز القارئ لفك رموزه انطلاقا من فهم العلاقة الجدلية الموجودة بين الدال، والمدلول وبين الحاضر، والغائب فتبدأ عملية البحث عن المعنى الغائب انطلاقا من دراسة الرموز التي تجعل الدلالة تنحرف باللغة الاصطلاحية إلى لغة ضمنية عميقة فالمنهج السيميائي في قراءة النص الأدبي نجده « ينبثق من النص نفسه ويتموقع فيه بوصفه شكلا من أشكال التواصل يربط علاقة تفاعل بين النص والقارئ لأن القارئ ينشط على مستوى استنطاق الدال النص مما يجعله يتفاعل مؤثرا في النص أو متأثرا به» (23)

أما عن آلية التحليل السيميائي فتختلف حسبا للجنس الأدبي المراد تحليله لكن هناك

نقاط ربط مشتركة بين جميع الأجناس والتي أشار إليها "على زغينه" في مقاله مناهج التحليل السيميائي إذ جعل استعمال المنهج السيميائي على مرحلتين:

أ–المرحلة الأولى: هي مرحلة القراءة وهي قراءة تختلف عن قراءة النقاد العادية بانفتاحها الدائم ويرجع هذا الانفتاح إلى عدة أسباب أهمها أن النص يعني شيئا على مستويات عديدة في المكان وفي لحظات عديدة في الزمان لذا تختلف كل قراءة عن أخرى.

ب–المرحلة الثانية: هي مرحلة الانتقال من المادية إلى مرحلة المعنى وعلى هذا يمكن القول أن معنى الكلمات التي نجدها في المعاجم ليس دائما نفس المعنى الكلمات الذي نجده في التواصل العقلي وعلم العلامات لا يهتم إلا بالمعنى الأخير« وهذا يعني أنه يمكن أن يكون لـ: الدال الواحد مدلولات متعددة وأن كل قراءة جديدة يمكن أن تكون تفسيرا مختلفا» (24)

فالأصل في تحليل السيميولوجي هو تحليل المقاطع والوحدات، ويتميز هذا النوع من التحليل« باعتماده على محور التوزيع فعندما تجمع قطع التحليل المبعثرة يمكن إعادة بنائها (...) هكذا تتراكب القراءة المقطعية (...) وتوجد داخل المقطع الواحد مقاطع صغرى،هي عبارة عن مجموعات غير متحركة،ولنقوم بتحليل أساسه المقاطع يجب أن نبدأ بقراءة النص كلمة كلمة ثم نعيد بناءه (...)،ونلاحظ عند تحليل أن بعض الأبنية تبرر أكثر من غيرها،لذا يمكن ترتيبها وفقا لمجموعة من التيمات على محور التوزيع(...)،لكن يجب أن يكون تحليل المقاطع تحليلا مفتوحا بمعنى ألا يكون منحازا وألا يصدر أحكاما» (25)

وهذه ما هي إلا آلية من الآليات السيميائية العديدة التي تسهم في تفكيك النص وبالتالي تأوليه،شريطة أن يتمتع المؤول بقدرة منهجية،ومعرفية واصطلاحية معتبرة.

2–3. رواج المنهج السيميائي في الدراسات العربية: عرفت الحركة النقدية المعاصرة رجة قوية بعد تسرب المنهج السيميائي إلى حدود العالم العربي وتغلغله في الممارسات التحليلية النقدية للنصوص الشعرية، والروائية خاصة، فانكب عدد من النقاد على التلقي النظري والإجرائي التطبيقي لمعطيات هذا النهج الجديد.

وعلى هذا فان الوطن العربي عرف القراءة السيميائية منذ منتصف السبعينات وأخذت تتأسس خلال الثمانيات من بوابة المغرب العربي المعاصر، وهذا من خلال الأقلام

التي أسهمت في هدا الحقل،نشير على وجه الخصوص لا التعميم لكل من « مُحَمَّد مفتاح، وعبد الفتاح كليطو، ومُحَمَّد الماكري، والسعيد بن كراد من المغرب، وعلي العشي،وسمير المرزوقي من تونس،وإلى عبد المالك مرتاض وعبد القادر فيدوح، وعبد الحميد بورايو، ورشيد بن مالك، والطاهر روابنية في الجزائر، وعبد الله الغذامي في السعودية، ومُحَمَّد خير البقاعي من سوريا وهناك لبنانيون،عراقيون ومصريون» (26)

وبالرغم من الاهتمام البالغ من النقاد العرب بهذا المنهج الجديد إذ وجدوا فيه ضالتهم في تحليل النصوص إلا أن مشكلة غياب استراتجيات واضحة بأساسياته التي نشأ عليها في أوربا ظلت المشكلة والعائق الأول في الاسترسال النقدي السيميولوجي.

نظرا لحداثة الموضوع على الثقافة الغربية النقدية المعاصرة فإننا نلاحظ الاختلاف في ترجمة المصطلحات المتعلقة بحقل السيمياء،بداية من مصطلح "السيميائية" ذاته، إذ تعددت الترجمات (كالعلاماتية، الإشارتية، علم العلامات) أو غيرها، والسبب في هذا الاختلاف هو أن « وضع المصطلحات السيميائية في العالم العربي يختلف تماما عما عليه في أوربا، إذ لم يرق بحكم التضارب الموجود في المصطلحات المستعملة الى بلورة نموذج مؤسس لخطاب علمي دقيق يضبط مفاهيمه، وأدواته الإجرائية الخاصة به سلفا» (27)

وقد قام النقاد العرب أو السيميائيون العرب – إن صح القول – بداية بترجمة بعض الكتب الغربية الخاصة بعلم السيمياء وتأليف بعض الكتب اللسانية السيميائية، ومن ثم تأليف بعض المعجمات للمصطلحات الغربية وتعريبها، ثم انتقلوا إلى التأليف النظري، قبل أن يخصصوا مؤلفات لتطبيق السيمياء على النصوص وقد تناول "حفناوي بعلي" هذه الرحلة السيميائية العربية في مقالته: « (التجربة العربية في مجال السيمياء) فذكر ثلاثة أنواع من المصادر العربية الحديثة التي يمكن من خلالها دراسة واقع السيمياء» (28)

2–4. أزمة المنهج السيميائي النقدية: عرف النقد السيميائي مثل غيره أزمة نقدية كادت أن تعصف به وهذا على الصعيدين الآتيين:

أ–على الصعيد النظري: تواجه النقد السيميائي حاليا مشكلة تعدد المفاهيم النقدية للمنهج السيميائي،و« تباين الخلفيات المنهجية والمنطلقات النظرية» (29) خاصة لدى النقاد

المشتغلين في حقل المنهج السيميائي، وتؤدي هذه الإضطرابات المعرفية المفهومية حتما إلى حجب الرؤية الصحيحة والعميقة عن ذهن المتلقي مما ينشئ «القطيعة بين القارئ العربي والنظرية السيميائية» (30)، وعليه أحصى الناقد "عبد الله بوخلخال" ما يقارب تسعة عشر مصطلحا للسيمياء وحدها والتي منها « السيميائية، السيميولوجية، علم العلامات،الدلائلية...» (31) إلاّ أنّ مشكلة المصطلح تبقى على أهميتها النقدية ثانوية،وذلك أنّه مهما تعددت المصطلحات لمنهج نقدي فهي تبقى أصيلة في تضمين مفهوم واحد هذا ما أشار إليه "بشير تاوريريت" قائلا:« فجملة المصطلحات الرد يفة لمصطلح السيميائية كلها تحيل إلى مضامين المنهج سواء على المستوى النظري أو الإجرائي، فعلى صعيد الدلالة المصطلحية لافرق بين مصطلح السيميائية والسيميولوجية فهما مصطلحان مترا دفان (32).

وفي ظل التعداد النظري للمصطلحات يعترف السيميائيون أنفسهم بقصور السيميائية وضحالتها فـ"جورج كوكي: J.Koky" يعترف بأنّ الحديث في السيميائية «يجري في اتجاهات مختلفة وبلا تميز » (33)، وفي نفس الصدد نجد "غريماس:Greimas" يصرح أنّ السيميائية قد تكون مجرد موضة، وأن يكف حديث الناس عليها في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات (03) ومن ثمة يبدو المنهج السيميائي باتجاهاته المتباينة لا يعدوا أن يكون « مجرد اقتراحات أكثر كونه مجالا معرفيا متميزا هذا عن مشكلة تعدد المفهوم (34).

ب- <u>على الصعيد التطبيقي</u>: قد تنبع أزمة المنهج السيميائي النقدية على المستوى الإجرائي أساسا وذلك لعدم وجود آلية متفق عليها سلفا في نقد النص الأدبي، وحتى لو تقاربت هذه المفاهيم النظرية ووحّدت يبقى تطبيق هذه النظريات إجرائيا، وإخضاع النصوص لها أمرا يحيط به اللبس، وهذا ما بينته تصريحات السيميائيين المنّظرين أنفسهم في الغرب وفي الشرق،حيث نجد "عبد المالك مرتاض" يطرح جملة من الأسئلة التي تبحث عن إجابة مقنعة حول المنهج المراد استعماله في تناول أي ظاهرة إبداعية فيتساءل قائلا: « من أين؟ إلى أين؟، وبأي منهج نقتحم النص؟» (35).

هذا عن المنهج، وفيما لوطبق المنهج السيميائي عل الظاهرة الأدبية، فالاختلاف سيكون كبيرا بين المحللين السيميائيين فيما بينهم،ذاك أنّ استخدامهم للأدوات الإجرائية

متباين عن الآخر،ناهيك المستوى الثقافي والتجارب النقدية لدى كل واحد تزيد من المشكلة لتبقى مشكلة التطبيق قائمة خاصة في النقد العربي، وهذا يعود في عمومه إلى التنظير المتعدد، وكذا تعدد المفاهيم المترجمة للمصطلحات الغربيية وتعريبها مباشرة دون إخضاعها للمقاييس النقدية، وقابلية النص الأدبي العربي لها، أو لا مما يزيد في غموض المصطلحات النظرية التي تبقى عصية مبهمة على الناقد، والمتلقي معا أضف إلى ذلك الفهم الصحيح المؤسس للكيفية السليمة لتطبيق تنلك المصطلحات على النصوص دون تمييز إذن فكيف لهم بتطبيقها على نصوص عربية تعكس رؤى فكرية معينة، وفلسفات معرفية ما.

وعليه يندمج الصعيديين معا ليشكل لنا أزمة نقدية عويصة يستحيل الخروج منها وهذا يجعلنا أمام مطبات منهجية ونقدية في تناولنا للمناهج الغربية التي تبقى غريبة عن ثقافتنا، وعن أدبنا وإبداعاتنا جملة وتفصيلا، ومن هنا نجد أنّ جميع هذه « المناهج(...) قابل للفاعلية المتفردة، على أن يكون النص الإبداعي الأول هو المنوط به تحديد المنهج القرائي وفي ما تقع عليه شفراته، مع تجاوز تقنية الإحالات في كل منهج على حدة واعتبار الأصل القرائي الأول هو فك الدوال عن مدلولاتها» (36)، وهذا لا ينفي جهود بعض النقاد الحدثيين الذين حاولوا إيجاد حلول نقدية أنية إذ « طوّروا خطابا نقديا عربيا حديثا يعتمد على التركيب بين المتجانس من التيارات المختلفة، والنمذجة المؤلفة بين المناهج المتعددة، والإبحار المتميز في صلب الثقافة العربية» (37).

والمهم من كل هذا أن النظرية النقدية العربية أصبحت لها أوجه متعددة تجعلها تبحث عن التأسيس لها من خلال المحولات الجادة عند نقادنا السيميائيين خاصة المغاربة منهم "مُحَّد مفتاح، وعبد الفتاح كليطو، وسعيد يقطين، وجميل حمداوي، والسعيد بن كراد...، وغيرهم ممن مازالوا يحاولون التأصيل للنقد السيميائي العربي.

النتائج: لقد توصلت المداخلة إلى جملة من النقاط الهامة التي يجب أن يراعيها ناقد النص الأدبي على وجه الخصوص لأنّ جلّ المناهج النقدية على اختلاف مشاربها سعت « إلى التشبه بالعلم واستخدام أدواته والاستفادة من معادلاته وأحكامه وأرقامه في مقابل مجافاة

التأثيرات الذوقية وإنكار الرؤية الذاتية »[38]. وعلى العموم فإنّ معظم هذه الملاحظات النقدية كالآتي:

1- ليس بمستطاع منهج نقدي واحد أن يستوعب الظاهرة الأدبية كلّها سواء أكان ذلك المنهج نقدي قائما على معطيات العلم أم غيرها من المعطيات التى تبحث في أغوار الظاهرة الأدبية.

2- يجب على الناقد أن يتحلى بسلامة الذوق،وجمال الأداء النقدي وأصالته من خلال استنباط وتفحص العلاقات الخفية التى تحكم بنية النص الأدبي.

3- يجدر الإشارة إلى عملية التكوين والتمرس على النقد التي يجب أن يقف عليها صاحب العمل النقدي كثيرا وذلك من خلال الإكثار من العمليات النقدية وعرضها على القرّاء على وجه الخصوص.

4- وقوع نقدنا العربي تحت هيمنة المناهج النقدية الغربية، وكف حكته عن الإبداع لما هو أصيل ومتفرّد ومنطلق من واقع همومنا الثقافية الخاصة،وطبيعة النّص الإبداعي،وهذا كلّه من أجل إنهاء الغربة المنهجية التى يحياها نقدنا العربي.

5- كثيرا من المناهج النقدية المعاصرة ما وقعت في مطبات العجز النقدي للظاهر الأدبية، وهذا لطبيعة النص الخاصة أو لعدم قدرة المنهج على تفكيك شفرات النص، ومناسبة المنهج النقدي له أثناء عملية التحليل.

6- رغم تباين المناهج النقدية المعاصرة مرفولوجيا،وتقنيا إلاّ أنّها تتقاطع في العديد من القضايا التي أثارت فجوات نقدية يصعب إغفالها منا رغم اختلاف العصر النقدي،وتباين أدوات كل ناقد،وتطور الأفاق المعرفية واللّغوية للمبدع،والناقد على الوجه الخاص لهذا كانت النصوص المعروضة على الساحة النقدية تلقى ما تلقى من أساليب التشريح، والتعديل النقدي الذي إما يضيق من حلقة نقدها أو يوسعها أو حتى يخرج بصاحب العمل الإبداعي عن المألوف من الأعمال وهكذا تبقى عملية النقد الأصيل في أخذ ورد بين الناقد والمبدع في ثنائية ضدية.

7- عموما أنّ المناهج النقدية السياقية،أو النصانية أو الأكاديمية أو التأثرية كلّها متكاملة فيما بينها في حين تبقى الظاهرة الأدبية صعبة المنال تتطلب مفهوما عاليا في الأصول النقدية وبناء معرفي مركب يسمح للناقد بمسح كلّ حواشي النص الموضوع تحت العين الرقمية للناقد الجاد

«وفي كلّ تلك المناهج ثمّة حركة تتمركز حول جوهر العمل الإبداعي، تتجه نحو الاقتراب من بنية النص الأدبي، وقد تتطرف في الاقتراب منه» [39]، وهكذا تبق العملية النقدية في أخذ ورد حتى تقف على مداخل ومغاليق الظاهرة الأدبية.

الهوامش:

(1) مُحَّد الجزائري: آلة الكلام (النقدية..) دراسات في بنائيّة النص الشعري، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1999:-http://www.awu-dam.org/book/99/study99/169-m-j/book99-sd002.htm

(2) علي زغينة: مناهج التحليل السيميائي،محاضرات الملتقى الوطني الأول،السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة،الجزائر 7–8 نوفمبر 2000،ص133.

(3) محمّد عزّام: النَّصُّ الغائب تجلّيات التّناصّ في الشعر العربي' دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2001: http://www.awu-dam.org/book/01/study01/52-m-a/book01-sd001.htm

(4) صالح هويدي: النقد الأدبي الحديث قضاياه ومناهجه، منشورات جامعة السابع من أبريل، مصر، ط1،2004،ص 25.

(5) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1،1999، ص 105.

(6) أحمد حسين جمعة:المسبار في النقد الأدبي(دراسة في نقد النقد للأدب القديم والتناص)، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2003:

http://www.awu-dam.org/book/03/study03/5-h-j/ind-book03-sd001.htm

(7) محمود الربيعي: في النقد الأدبي "وماإليه"، دارغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،مصر، ط1،2001، ص 261.

(08) المرجع نفسه،ص 260.

(09) مصطفى خضر: النقد والخطاب محاولة قراءةٍ في مراجعةٍ نقديّة عربيّةٍ معاصرة، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2001:
http://www.awu-dam.org/book/01/study01/190-m-h/book01-sd002.htm

(10) مُحَمَّد الجزائري:آلة الكلام (النقدية..) دراسات في بنائيّة النص الشعري، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1999: http://www.awu-dam.org/book/99/study99/169-m-j/book99-sd002.htm

(11) مرشد الزبَيدي: اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1999: http://www.awu-dam.org/book/99/study99/114-m-z/book99-sd002.htm

(12) حفناوي بعلي: التجربة العربية في مجال السيمياء،محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة،الجزائر 15–16 أفريل 2002، ص 164.

(13) صالح مفقودة: السيميولوجيا والسرد الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول، السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، 6، 7، نوفمبر، 2000، ص318.

(14) عصام خلف كامل: الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص18.

(15) جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج5، ع3، يناير/مارس، 1997،ص80.

(16) فريد أمعضشو: المنهج السيميائي، رابطة أدباء الشام. http://www.adabasham.net/show.php?sid=11078 23/04/2007

(17) عصام خلف كامل: الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، ص19.

(18) مُحَمَّد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص5، 6.

(19) عصام خلف كامل: الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، ص13، 14.

(20) المرجع السابق، ص15.

(21) يوسف الأطرش: المقاربة السيميائية في قراءة النص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول

السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة،الجزائر 7–8 نوفمبر2000، ص 144.

(22) المرجع نفسه، ص 145.

[23] المرجع نفسه،ص 146.

[24] علي زغينة: مناهج التحليل السيميائي، ص، 135،136.

[25] المرجع نفسه، ص،137،138.

[26] حفناوي بعلي: التجربة العربية في مجال السيمياء،محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة،الجزائر 15–16 أفريل 2002، ص 164.

[27] المرجع نفسه، ص 165.

[28] المرجع نفسه، ص 160،174.

[29] بشير تاوريريت: أبجديات في فهم النقد السيميائي، محاضرات الملتقى الوطني الثاني،السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة،الجزائر،15–16 أفريل 2002، ص207.

[30] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[31] أعمال ملتقى: " الأدب الجزائري في ميدان النقد السيميائية والنص الأدبي"،معهد اللغة والأدب العربي،جامعة عنابة، ص 75.

[32] بشير تاوريريت: أبجديات في فهم النقد السيميائي، ص207.

[33] أعمال ملتقى: " الأدب الجزائري في ميدان النقد السيميائية والنص الأدبي"، ص 28.

[34] بشير تاوريريت: أبجديات في فهم النقد السيميائي، ص207.

[35] المرجع نفسه،ص 209.

[36] عزت مُحَّد جاد: نظرية المصطلح النقدي،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1،2002، ص 312.

[37] صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1،2002، ص153.

[38] المرجع نفسه، ص 152.

[39] المرجع نفسه،الصفحة نفسها.